الحلولية والعلمانية الشاملة في سيرة عبد الوهاب المسيري "رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر"

aadwan@najah.edu

اعداد:

د/ عدوان نمر مسعود عدوان

أستاذ مساعد ـ قسم العربية- جامعة النجاح الوطنية

aadwan@najah.edu

الملخص: يهدف هذا البحث إلى توضيح دور العلمانية والحلولية اللتين تذهبان إلى تنميط الحياة، وجعل مركز الكون كامن فيه، وأن العالم مادة واحدة لا قداسة لها، ولا تحتوي أية أسرار، ولا تكترث للمطلقات أو التفرد أو الثوابت مستبعدا جميع المعايير القيمية والأخلاقية بناء على آلية واحدة تحسم الصراع وهي القوة مما أدى إلى ظهور الداروينية والإمبريالية، وظهور مذهب الحلول أو الكمون الذي يقول إنّ العالم كل واحد متماسك بشكل عضوي، لا تتخلله أي ثغرات، خاضع لقوانين واحدة كامنة فيه، ويذهب إلى أن كل ما في الكون (الإله والإنسان والطبيعة) مكون من جوهر واحد.

ومن هنا يقوم المسيري بتتبع فلاسفة الغرب من عصر التنوير إلى العصر الحالي، ويختزلهم في

فلسفة الحلول، وأن ما وصل إليه العصر الحالي ما هو إلا نتيجة طبيعية لتلك الفلسفات والمذاهب،

فهي مجتمعات شمولية نجحت في أن تجعل الجماهير تستبطن الرؤية السائدة في المجتمع دون

قمع بوليسي براني بحيث يرى الإنسان أن هدفه النهائي زيادة الإنتاج، وهذا هو الفردوس

الأرضي الذي تسعى إليه النخب والمذاهب فما الرأسمالية والنازية والصهيونية إلا تحقيق طبيعي، وتجل لهذه الصيرورة.

الكلمات الدالة: الحلولية، التاريخ، الثقافة السائلة، الثقافة الصلبة.

Incarnation and all-encompassing Secularism in the Biography of Abd al-Wahhab al-Messiri "My Intellectual Journey in Seeds, Roots and Fruits"

Abstract: This research aims to clarify the role of Secularism and Incarnation, which go to standardize life and make the center of the universe latent in it. They also claim that the world is a single substance that has no sacredness, secrets, and does not care about absolutes, uniqueness, or constants excluding all value and moral standards. This all is based on one mechanism that decides conflict that is the Power leading to the emergence of Darwinism and Imperialism.it says that the world is an organic whole without any gaps, which is subject to specific laws latent in it. Hence, El-Messiri traces the Western philosophers from the Enlightenment era to the present era, and reduces them to the philosophy of solutions affirming that what the current era has reached is only a natural result of those philosophies and doctrines. They are totalitarian societies that succeeded in making the masses internalize the prevailing vision in society without external police oppression. Thus, the man sees that his ultimate goal is to increase production, and that this is the earthly paradise that the elites and sects seek. Is the sense that capitalism, Nazism and Zionism are not but a natural realization

Key Words: Incarnation, History, liquid culture, solid culture.

قبل البدء في الكلام عن العلمانية في المجتمعات الغربية لا بد من التنويه إلى أن العلمانية كما يورد المسيري نموذج كامن في المجتمعات كلها بما فيها المجتمعات الإسلامية، فإغراءات التفسيرات المادية، والنزوع الجنيني الذي يعبر عن نفسه في الرغبة في الاندماج بالخالق، وفي إلغاء كل الحدود، وفي التحكم في كل شيء، وفي التخلي عن المسؤولية الخلقية هو جزء من النزوع العام في النفس البشرية، وأن الأمة مهما بلغ تدينها وتمسكها بأهداب دينها لا بد أن تتعامل مع الزمان والمكان والطبيعة والجسد من خلال إجراءات زمنية صارمة، فعناصر العلمانية موجودة في أي مجتمع في الهامش، وفي حالة كمون، ويمكن أن تنتقل منه إلى المركز. ومن الكمون إلى التحقيق إن ظهرت اللحظة التاريخية والظروف الاجتماعية والسياسية المواتية، وساد الجو الفكري المناسب، وهي صفة بنيوية عضوية، وأن كثيرا ممن يساهمون في صنع المنتجات الحضارية، قد يفعلون ذلك وهم لا يدركون تضميناتها الفلسفية، ودورها القوي في صياغة الإدراك والسلوك؛ لذا يمكن أن يكون هناك مجتمع يتبنى بشكل واضح ظاهرة أيديولوجية أو رؤية علمانية جزئية، ولكن عمليات العلمنة الشاملة البنيوية الكامنة من القوة بحيث إنها توجه المجتمع وجهة مغايرة تماما لا يشعر بها أعضاء المجتمع أنفسهم(المسيري، ٢٠٠٢، ص٢٢-٢٤)

ويرى المسيري أن العلمانية تنقسم إلى جزأين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، وأنها بدأت في الموروث المسيحي منذ القرن الثالث عشر للدلالة على طبقة رجال الدين الذين يسهرون على خدمة الشؤون الدنيوية لعامة الناس المتدينين تمييزا لهم عن طبقة الكهنة الذين يتفرغون لشؤون العبادة والتزهد الخالصين، ومنذ هذه اللحظة بدأت تستخدم كلمة علمانية للإحالة إلى العالم الخارجي، وفي مرحلة لاحقة اتسعت دلالة الكلمة لتشمل كل المؤسسات الدنيوية المعنية بالمسائل المدنية والزمنية تمييزا عن المؤسسات القائمة على خدمة الدين (بوشلاقة، ٢٠٠٤، ص ٢٩٨-٢٩٩)

لقد كان الإنسان الغربي في ذلك الوقت يعيش حياته العامة ضمن المرجعيات الدنيوية، لكنه يحب ويحلم ويتزوج ويموت داخل المرجعية الدينية المسيحية، أي يستطيع أن يمارس الترشيد الاقتصادي والضبط المنهجي للحياة على أساس اقتصادي بعيدا عن القواعد المتجاوزة للمادة والقوى الغامضة، ومن رحم المجال الاقتصادي ارتحلت العلمانية، أو فصل الدين عن الدولة إلى مجالات أخرى مثل الأدب، وصار الإنسان الغربي يبحث عن رؤية شاملة، وعن لغة جديدة، وعن بعد معرفي يحدد علاقة الدين بكل مجالات الحياة، وهي رؤية عقلانية مادية ترى أن مركز الكون كامن فيه، وأن العالم مادة واحدة لا قداسة لها، ولا تحتوي أية أسرار، ولا تكترث للمطلقات أو التفرد أو الثوابت مستبعدا جميع المعايير القيمية والأخلاقية بناء على آلية واحدة تحسم الصراع وهي القوة، ولذا فإن البقاء للأقوى، مما أدى إلى ظهور الداروينية والإمبريالية (البشير، ٢٠١٤، ص٣٩٤-٣٩٧)

مذهب الحلول أو الكمون يقول: إنّ العالم كل واحد متماسك بشكل عضوي، لا تتخلله أي ثغرات، ولا يعرف الانقطاع أو الثنائيات، خاضع لقوانين واحدة كامنة فيه، ويذهب إلى أن كل ما في الكون (الإله والإنسان والطبيعة) مكون من جوهر واحد، وينكر هذا المذهب فكرة التجاوز،

فالكون واحد، وفي إطار الحلولية الكمونية يمكن رد كل الظواهر مهما بلغ تنوعها وتجانسها، ويمكن رد الإنسان إلى الطبيعة، فليس الإنسان متجاوزا للمادة على غير ما جاء في الدين الإسلامي من أن الإنسان خليفة مستخلف يحوي داخله عنصرا غير مادي وغير طبيعي، وليس الله متجاوزا للطبيعة بل يحل فيها ولا وجود له دون مخلوقاته، فالعالم ذو بعد واحد لا يتسم بأي ثنائية، ومن هنا تجري القوانين الطبيعية على كل شيء (قانون الطبيعة، العلم، الحركة، التاريخ) وما دامت الطبيعة متحركة ومياه النهر متحركة تصبح النسبية هي المطلق الوحيد، وتصبح القوة الدارونية هي القوة المسيطرة، بل تصبح الفلسفات المادية لها الكلمة الأولى(الإنسان السوبرمان، الرجل الأبيض، شعب الله المختار) (المسيري، ٢٠١٨أ، ص٣٨٩-٣٩١)

وفي شيء قريب من هذا تظهر فلسفة البانشيزم اليهودية وهي فلسفة معادية للإنسان ومعادية للتاريخ والثورة، فحينما يحل الله في الأرض أو في تاريخ الأمة، أو عندما تبلغ الفكرة منتهاها فيصبح الله هو الأرض والأمة(وهذا هو ثالوث وحدة الوجود: الله والإنسان والطبيعة) وبهذا فإن المطلق سيحل في النسبي ويمتزجان، وينجم عن هذا أن يفقد المطلق سموه؛ لأن المثل الأعلى هو ما يدفع الإنسان لتخطي المادة والطبيعة، ويعتبر مارتن بوبر أن الإيمان هو حوار بين الإنسان والله، يدخل الإنسان في حوار مع (الأنت) وليس مع (الهو) أي مع الحي، وليس مع الموضوع الميت المنغلق، وبمعنى آخر يصبح الله حقيقة شبه ذاتية يمكن للذات البشرية الإحاطة بها، وليس حقيقة مثالية تحاول الذات الوصول إليها، بل إنه يلغي الفردية اليهودية لصالح الشعب والحوار يتم بين الله وشعب إسرائيل، فيذوب الله في الشعب ويذوب الشعب في الله مكونين كلا واحد، يقول الحاخام المحافظ شختر: عندما وجدت إسرائيل نفسها وجدت إلهها، وعندما أضاعت إسرائيل نفسها، أو عندما بدأت تعمل لمحو نفسها كان من المؤكد أنها سوف تنكر إلهها(المسيري، ٢٠١٨ب، ص٤٥-٤٦)

ولا بد من الإشارة إلى أن الصهيونية كانت تركز على أن الشعب الفلسطيني شعب بدوي أو شعب رحل؛ وذلك لنفيهم من ارتباطهم الزراعي في الأرض كما الشعوب الأخرى، بل إن الصهيونية أكدت على أن الشعب اليهودي كان شعبا زراعيا مرتبطا بالأرض، وقد أجدبوا عندما ابتعدوا عن أرضهم، وهم بهذا يحاولون إلصاق ما كان يعيش فيه اليهود على الشعب الفلسطيني، وأن هذا الشعب بلا أرض وبالتالي بلا ثقافة وبلا روح.

لا بد هنا من التنويه إلى فلسفة التنوير التي ترى أن الدين الطبيعي ينبغي أن يكون مركز الفعل، وليس الأديان السماوية والوضعية الموجودة؛ لأن الإنسان نفسه هو الذي يجب أن يسيطر على الفعل، ويعيد تشكيله ويحوله إلى حرية داخلية، فليس ما يجلب الدين اليقيني إلى الإنسان هو قوة غيبية، أو النعمة الإلهية، إنما الإنسان هو من يسمو بنفسه إلى هذا اليقين ويحافظ عليه، ومن هنا يمكننا فهم قول فيلسوف التنوير ديدرو: إن مبتكر الطبيعة الذي لم يكافئني على كوني ذي حجى(عقل) لن يلعنني لأني أحمق. فقصور الإنسان عن الفهم الكلي في الحياة أو العلم ناتج عن عدم الرشد الذاتي وعن نقص في العزم والشجاعة، فليس كل خطأ تقع فيه المعرفة الإنسانية خطيئة، بل إن الأخطاء نفسها التي لا تعبر إلا عن حدود وجودنا هي أخطاء ضرورية لا يمكن

تجنبها "تجرأ لتكون حكيما امتلك الشجاعة لاستخدام فهمك الخاص! هذا هو شعار التنوير"(إرنست كاسيرر،٢٠٠٧/ ٢٠١٨، ص٢٠١٤-٢٠١٥)

يرى المسيري أن نموذج الحلولية والعلمانية الشاملة الذي يقترحه يعطي المفاتيح للفهم، فهو يعني رفع الحاجز بين المقدس والمدنس، وتقديس أشياء غير مقدسة مثل الكون والطاقة، وأن العلمانية الشاملة أدت إلى تفكيك الإنسان ورده إلى ما هو دونه أي الطبيعة، وتحويله إلى مادة استعمالية، وهي تمثيل للإمبريالية التي حولت العالم إلى مادة استعمالية يوظفها الإنسان الغربي الأقوى لصالحه، فنظمت الداخل الأوروبي بشكل صارم، فرشّدت الإنسان الغربي وجيشت الجيوش، وقامت بغزو العالم غزوة إمبريالية، وعلى غرارها فعلت الصهيونية ما فعلته الإمبريالية، فحولت فلسطين والفلسطينيين، وأعضاء الجماعات اليهودية إلى مادة استعمالية قابلة للتوظيف، ومن هنا يرى المسيري أن الصهيونية إحدى تبديات نموذج العلمانية الشاملة. (المسيري،٢٠١٨أ، ص٤٠٠-٤٠١)

في ما يتعلق بالصهيونية والجماعات اليهودية فإنهما لا يمثلان الشيء نفسه بل يعبران عن شيئين مختلفين أشد الاختلاف، فكلتاهما تمثل صورة ذاتية نقيضة الأخرى فقد نشأت الصهيونية من أنقاض اليهودية، واليهود في حالة إعياء، كما أن الصهيونية لا تمثل الاستمرارية ولا العلاج من المرض، فهي تقتلع وتدمر، بل تضلل الشعب وتعانده، وتعمل ضد إرادته وروحه وتفرغه وتقتلعه، وهي ليست استمرارية للتاريخ التوراتي بل طفرة طرأت عليه كما يعبر أندريه مارلو، وفي هذا السياق تؤدي الدارونية الاجتماعية وعلوم تحسين النسل دورها الطبيعي في المغامرة الصهيونية، فقد وسمت نزعة الهيمنة الأبوية الحركة الصهيونية في أيامها الأولى حتى قبل نجاح اليهود الروس في السيطرة عليها؛ ولذا اقترحت النظر إلى الزوج لا كعميل فردي بل كفعل اجتماعي مهم يعتمد عليه العرق نفسه، وبالتالي أصبحت المبادرة الصهيونية برمتها ثورة في علم تحسين النسل تسعى لتنقية العرق. (م.رابكن،2016/ ٢٠٢١، ص١٢٢)

يحلل المسيري النموذج الثاني في سيرته وهو العلمانية الشاملة(الإمبريالية) وهو نموذج أكثر اتساعا من نموذج الجماعات الوظيفية وأكثر عمومية إذ لا يضع اليهود في سياق الأقليات وحسب إنما في سياق التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي، وهو التشكيل الذي هيمن على العالم بأسره، ومن ضمنه الجماعات اليهودية، ويظهر اليهودي في هذه الحالة عضوا يمارس عليه الدمج، ويعيش كغيره أزمة الحداثة.(المسيري، ٢٠١٨أ، ص٦٢٦) ويرى المسيري أن الصهيونية أيديولوجية حلولية وثنية؛ لذا يصفها الحاخمات الذين بقوا داخل إطار العقيدة اليهودية بأنها عقيدة شيطانية، ويصفون الدولة الصهيونية بأنها"العجل الذهبي" أي شيء مادي ألهه اليهود بدلا عن الخالق، والحلولية هي الأرضية التي يتفق عليها الصهاينة الملاحدة والصهاينة المتدينين، فكلاهما يتفق على أن الشعب اليهودي مقدس وموضع الحلول، لكنهم يختلفون في أن مصدر القداسة هو الخالق، لكنه خالق حل في شعبه، أما الملحدون فيرون أنه شعب مقدس خلع القداسة على نفسه(المسيري، ٢٠١٨أ، ص٣٩٤)

يرى المسيري أن غياب الله عن المجتمع الغربي حول العالم إلى مادة صماء خاضعة إلى قوانين الحركة والضرورة، وبغياب الله يتحول الإنسان إلى كائن مادي يمكن تفسيره في إطار المعادلات الرياضية التي يمكن معرفتها والتنبؤ بها، ومن هنا فكل ما يتعلق بالإنسان إنما هو معادلة مادية طبيعية، فماركس مثلا عرف الزواج بأنه علاقة اقتصادية مفعمة بالحب، بدلا من قوله بأنه رباط إلهي، وعرف الدين بأنه أفيون الشعوب، وأنه جزء من بناء فوقي يرد إلى بناء تحتي ألا وهو المادة، وتحدث المسيري عن انجذابه للكاثوليك؛ لأنهم يشجعون على الانتماء للجماعة والإحساس في الآخر، والانتماء للأسرة وذلك نقيض البروتستانت واليهود الجدد الذين يعتمدون على الفردية. (المسيري، ٢٠١٨أ، ص ١٨٦-١٨٩)

ينتقد ريتشالد وايكارت تأثيرات الدارونية الخطيرة والجذرية على الأخلاق، وأنها أطاحت بالأخلاق المسيحية واليهودية وبأخلاق التنوير خاصة المتعلقة بقداسة حياة الإنسان، وانتقد اتفاق كثير من الداروينيين على أن البشر يمكن أن يختزلوا إلى الحيوانات، وأن التطور له أثر كبير على مغزى الإنسان؛ لأنه مزق الحدود بين عالمي البشر والحيوان، وأن قيمة حياة الإنسان تقاس بمدى مساهمته في رخاء المجتمع، وأن الدارونية طوعت حياة الفرد لصالح المجتمع، وأن عليها أن ترجع المفهوم العاطفي لقيمة حياة الإنسان باعتباره يعوق تقدم البشرية، وأن كمال البشرية في تحطيم الأفراد الأقل في إمكانياتهم لصالح الأفراد المتميزين؛ ليتمكنوا من توسيع سلالتهم وبسطها، فالدولة لها مصالح في الحفاظ على حياة المتميزين، وأن السياسة يجب أن تخضع لمبادئ الدارونية، وأن إبادة الأمم الأقوى في التاريخ للأمم الأضعف ينبغي أن تكون تقدما، وانتقد الألماني إدفارد دافيد المؤسسات التي تقدم خدمات اجتماعية للحفاظ على حياة العناصر المعطوبة بالسماح لهم بالتناسل، وحفظ نسلهم الضعيف صحيا (ريتشارد وايكارت، 2004/٢٠١٩، ص ١١٩-١٢٤)

يعيد المسيري التشكيل الحضاري الإمبريالي إلى عدة أسباب من ضمنها العائلة، فيقول إن الأسرة هي أهم المؤسسات التي طورها الإنسان ليدخل الطمأنينة على قلبه، أما المجتمعات الحديثة فقد جعلت الإنتاجية والحركية هدفها فاعتراها القلق، ويشير إلى ماكس فيبر الذي يرى أن القلق يولد نزعة إمبريالية في الإنسان تجعله يود غزو العالم، وتملكه وهزيمته والهيمنة عليه وعلى نفسه؛ ليثبت لنفسه تفوقه فيحقق شيئا من الاتزان. (المسيري، ٢٠١٨أ، ص ١٩٣-١٩٤)

وبطريقة فكرية يرى المسيري أن المجتمعات الغربية التي ادعت الفردية قامت على نقيض ذلك بهدمها وتذويبها، فالغربي وهو يعتقد أنه يحقق ذاته في واقع الأمر هو يحقق الموضوع، ويشير المسيري إلى المفكر ماركوزة الذي يرى أن المجتمعات الغربية يسود فيها ضرب من غياب الحرية في إطار ديموقراطي سلس معقول؛ أي إنها مجتمعات شمولية نجحت في أن تجعل الجماهير تستبطن الرؤية السائدة في المجتمع دون قمع بوليسي براني بحيث يرى الإنسان أن هدفه النهائي زيادة الإنتاج، ويضرب مثالا على ذلك في الإنسان الذي يهتم بتقليعة الملابس ظانا أنه يحقق ذاته ويتمركز حولها، لكنه يتخلى عن فرديته تماما؛ لأن عليه أن ينفذ أوامر مصمم الأزياء بحذافيرها؛ أي يتمركز حول الموضوع، وينفذ المطلوب.(المسيري، ٢٠١٨أ، ص١٩٤-١٩٥)

يعيد المسيري ذلك إلى النسبية التي فرغت الإنسان من الداخل بحيث جعلته شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ قرار، وفي الوقت نفسه قادرة على تسويغ أي قرار، ويطلق على تلك النسبية مصطلح "الإمبريالية النفسية" التي جعلت من الإنسان النسبي المتردد فريسة سهلة لتنفيذ المخططات، ويذهب المسيري إلى أن السعار الجنسي والاستهلاكي في المجتمع الحديث تعبير عن رغبة الإنسان في الوصول إلى نقطة ثبات يقينية في عالم النسبية السائلة، وأنه أصبح موضوعا فلسفيا تماما مثل الخمر عند امرئ القيس وعمر الخيام، فهو ليس سائلا ملونا يذهب الوعي، وإنما هو جزء من فلسفة كونية شاملة ورؤية للعالم، وتعبير عن إحساس عميق بالغربة (المسيري، ٢٠١٨أ، ص ٢٤٠)، فالإنسان الأمريكي إنسان استهلاكي في كل شيء، برم بما بين يديه، يريد تبديل سيارته كلما سنحت الفرصة، ويبدل جيرانه، وأصدقاءه، وأعاد المسيري ذلك إلى أن الإنسان الأمريكي في الأصل إنسان استيطاني؛ أي صفري جاء من أوروبا وبدأ حياة جديدة بلا ذاكرة، ويبحث عن السعادة المؤقتة في لحظة صفرية بعيدا عن التراث والذاكرة والماضي وعن وجوده المتعين، وهذا الحلول في الجسد أدى إلى التأثير على بناء الأسرة، فصار المواطن الأمريكي الذي يرى النساء نصف العاريات يصعّد من مطالبه لزوجته، ويطلب منها أن تكون إحدى ملكات الإغراء مما يسبب الإحباط لاستحالة تحقق الرغبات(المسيري، ٢٠١٨أ، ص ٢٤٣-٢٤٤) يدلل المسيري كذلك على حركة (الهبّي) التي طرحت مسألة علاقة الجنس بالثورة، وحاولت أن تجعل الثورة في جوهرها ثورة جنسية بحيث يصبح الإنسان مرجعية ذاته، لكن المفارقة الكبرى أن الإنسان عندها يصبح مسلوب الإدارة وعبدا لغرائزه،(المسيري، ٢٠١٨أ، ص٢٤٧) ويرى المسيري في الفردوس الأرضي أن الهبّية رؤية كمونية تنتمي إلى كيان ما تساعده على فقدان الذاتية الاجتماعية المحسوسة، ويكتسب بدلا منها ذاتية مجردة منغلقة على نفسها تشبه ذاتية المتصوفة، وأن شأنها شأن المجتمع الاستهلاكي ترتكز على الجنس البيولوجي المحض للوصول إلى النشوة الفردوسية الطبيعية التي لا يعقبها أية علاقات اجتماعية أو التزامات إنسانية من أي نوع مثل: الزواج أو حتى الحب لمدة لا تزيد على ٢٤ ساعة. (المسيري، ٢٠١٩ ، ص٧٦) ويعيد فلسفة البراجماتية، وعدم الاكتراث بالسياسة في الولايات المتحدة إلى ذلك، ويعيد شلل الاختيار الذي ينتاب المجتمعات الغربية إلى وفرة الإنتاج، فالإنسان يريد تجريب كل شيء مما يؤدي به إلى عدم الاستقرار على شيء، ويستشهد المسيري بمقولة لقبيلة الباكتو في الكونغو التي وصفت الإنسان الغربي بأنه خفاش يطير بتوتر، ولكنه لا يعرف إلى أين.(المسيري،٢٠١٨أ، ص١٩٦-٢٠١)

وفي رأيي أن الغرب اتبع أول الأمر فلسفة هيراقليطس التي تعتمد على الحركة والصيرورة، والتي مثلها في قوله أنت لن تستطيع أن تقطع النهر نفسه مرتين؛ لأن مياه النهر تكون قد تغيرت، وهذه الفكرة تطورت إلى فكرة الحداثة التي مثلها هيجل في نقده لتاريخ المجتمعات الأولى التي كانت تعتمد الأساطير مرجعية لها إذ عدها لا تمثل تاريخ الإنسان، وأن تاريخ العالم هو مسار تكافح فيه الروح لكي تصل إلى الوعي بذاتها وبتجسيد فكرتها، وأن صيرورة العالم تتجه من الأدنى إلى الأكثر كمالا، وأن العالم يتجه في جدليته حتى يصبح العقل قادرا على السيطرة على العالم(مفتن، ٢٠١٥، ص٧٧٨-٧٧٩) إلى أن وصل الأمر إلى ما بعد الحداثة، وهي فكرة

البلاغة والمجاز والتشعب وقراءة ما لا يمكن قراءته، فليس التقدم هو الأفق القادم الذي نصبو إليه، وليس الماضي الذي نبتغي احتذاءه، إنما ما نتمثله من تجارب وممارسات حبلى بالسلوك العلمي والبراغماتي التي تبيح أشكالا ملموسة من التقدم والصناعة والابتكار، والحرية ليست البحث عن نماذج معيارية جديدة؛ لأن التجربة برهنت أن النماذج استبدادية الطبائع فهي تحاصر الحريات فيما تستدرجها لممارسة حريتها وتحررها، إنما الحرية مجازات وتعبيرات تغني التجربة الإنسانية في مقاربتها لحريتها، فالوجود كله مجرد لغة أو شبكة لغوية مجازية، فالواقع نفسه أو الحدث مجرد مجاز أو خطابة تصف الواقع وتعيد تشكيله، وتجعله ليس زمنا سيالا أو سلوكا فعالا إنما مجازات وخطابات لها وقائعيتها، فكأن الواقع خطاب مرموز، وكأن الخطاب واقع محدث(الزين، ٢٠٠٨، ص٥٥-٥٦)

يقترب هذا القول من قول التفكيكيين الذين يرون المعرفة متضمنة في النصوص ولا ينظرون إليها مصدقة من خلال منهج فكري ذي مرجعية خارجية أو مسبقة، وبما أن المعنى في اللغة متغير وغير محدد؛ أي سيّال بمعنى أو آخر فإن جميع أشكال السلطة في داخله متغيرة ومتبدلة، وعلى نحو مشابه فإن الحقيقة المطلقة معدومة نتيجة للتغير والتبدل والسيلان؛ لذا فإن التفكيكيين يسعون إلى تقويض المرجعيات والسلطات وأنظمة النفوذ جميعها في اللغة (لجورين وآخرون، ٢٠٠٩، ص ٣٤١)

ومفهوم البراغماتية هو نسق فلسفي يرتكز على أساس مفاده أن قيمة المفهوم تتبدى فيما يترتب عليه من آثار عملية ونتائج واضحة وملاحظة، فتصور الموضوع هو تصور لنتائجه لا أقل ولا أكثر، وهي مفهوم مرتبط بنتائج أي عمل، وليس بمقدماته أو طبيعته؛ لذا فإن توجهها الفكري ينحو نحو الحركة، ونحو المستقبل بغض النظر عن أصله أو ماهيته(بريمي،٢٠١٥ ، ص ٧٢-٧٣)

أما ديوي الأمريكي البراجماتي فيرى نسبية المعرفة وسيلان الحقيقة، وأن الأفكار تدور مع المشاكل والمواقف والظروف الاجتماعية، ولو تغيرت الظروف لصارت الأفكار السابقة عديمة الجدوى، ويدعو إلى الاهتمام بالحاضر وطرح الماضي، وإن وجد بعض الماضي الحي فهو الماضي الذي يقبل التطبيق اليوم، وينبغي على أبناء الحاضر ألا يترددوا في نبذ كل ما يرونه غير صالح مما ورثوه من الماضي، كما يدعو إلى السيولة ومرونة الحقائق بحيث تقبل التعديلات التي تقتضيها الظروف والمواقف الجديدة، وحذر من الحقائق المتصلبة، ومن المعتقدات والنظريات التي تجمدت وامتنعت عن التعديل والتليين؛ لأنها ستصبح عقبة وخطرا على التقدم (بدوي، ٢٠١٩، ص٥٠١)

يتنبأ المسيري بحالة الشذوذ التي ستصيب الغرب، ويقول إنه شكل طبيعي من أشكال التعبير عن الهوية، فما دام الإنسان يسعى نحو المتعة، وينكر المرجعية الإلهية فإن الشذوذ حالة معرفية يمكن أن تصل إليها المجتمعات الغربية، وما دامت الأمور نسبية فلا سبيل لتفضيل شيء على شيء آخر والالتزام يساوي عدم الالتزام، (المسيري، ٢٠١٨أ، ص ٢١٠) ويعتقد المسيري أن الشذوذ هو النتيجة المنطقية والترجمة الوحيدة الأمينة لمبدأ اللذة النفعي، فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشئ

علاقة مع شخص آخر من جنسه، فيتغلب على اغترابه بشكل مؤقت، ثم يعود مرة أخرى لحياته الاستهلاكية البسيطة، وهو يتغلب على اغترابه دون أن يدخل في علاقات ذات آثار اجتماعية، فالعلاقة مع شخص من نفس الجنس هي أقل العلاقات جدلية، والأقل كلفة، وقد بدأت بين الرجال، وانتشرت بين النساء في أمريكا، ويرد المسيري ذلك إلى حركة تحرير المرأة أو حركة التمركز حول الأنثى، فالمرأة المتحررة هي الأكثر تحررا واستغناء عن الرجل، ومكتفية ذاتيا (المسيري، ٢٠١٨أ، ص٢٤٥)

من أهم تشخيصات النظرية النسوية ظاهرة التفكك الأسري وزوال الأسرة كبنية وكوحدة أساسية عن طريق تخلي المرأة عن دورها البيتي، فينتج عن ذلك الضياع والغربة وهروب الرجال وغيابهم فلو أرادت النساء تربية أطفالهن بمعزل عن الرجال؛ وذلك بوصفه أحد مطالب التحرر من هيمنة الرجال لدى عدد من التيارات النسوية فستواجه المجتمعات مشاكل عديدة في مقدمتها غياب المرشد أو الموجه أي الأب بوصفه القدوة أو النموذج الأعلى الذي سيهتدي بهديه الجيل الجديد، وسيقع الصغار ضحية تأثيرات غير سليمة ومتضاربة، وغير محسوبة في أغلب الأحيان تأتي عادة نتيجة تقليدهم لمجايليهم، فتكون نتيجة غياب الآباء تنامي أعداد السجون وزيادة نزلائها وخصوصا بين الفئات العمرية الشابة. (عبد الجليل الخليل و علي مجيد، ٢٠٢٢، ص ٢٩٠)

ومن المنطلق نفسه هاجم كذلك المطبعين النسبويين؛ لأن النهاية ستكون في التطبيع مع إسرائيل، ودلل على ذلك بحادثة حصلت له عندما حضر ندوة ضد التطبيع، فتحدثوا عن الحضارة المصرية، وأنها كانت فرعونية ثم قبطية ثم عربية ثم حديثة، فأشار إلى قولهم بأنه يؤكد الصيرورة المستمرة، وانتهاء الهوية التي ستصبح بلا طعم ولا لون ولا رائحة، وتهكم على ذلك قائلا: لم لا نتصور تحول هذه الهوية إلى هوية شرق أوسطية كما ينادي الصهاينة؟ (المسيري، ٢٠١٨أ، ص٢١٠-٢١١)

ينتقد المسيري العقلانية الغربية ويرى أنها عقلانية مادية ترى الإنسان إنسانا طبيعيا له حاجات مادية وخاضع لقوانين معروفة مسبقا، فهي تساوي بين الإنسان والطبيعة المادية، وتجعل العقل الإنساني يذعن للطبيعة إلى أن تصبح مهمته في نهاية الأمر رصد الطبيعة، ومعرفة مسارها وقوانينها لتطبيقها على الإنسان، فالدماغ يفكر كما تهضم المعدة، وكما تفرز الكبد الصفراء، وهذا دفعه للتجريب المنفصل عن القيمة الإنسانية والغاية، ويعزي المسيري سبب الكره العميق للعرب في الغرب، وعدم تفهم القضية الفلسطينية، وأهمية القدس إلى هيمنة العقل المادي الغربي، فاللاجئون الفلسطينيون يعيشون في وضع مادي مزر، ومع هذا يرفض غالبيتهم التعويضات السخية التي يمكن أن تدفع لهم، وهم لا يزالون يتذكرون بيوتهم في حيفا ويافا ويحتفظون بمفاتيحها وهم مستمرون في مقاومة العدو عبر ما يزيد على مئة عام، ويصرون على أن مدينة القدس هي عاصمة دولتهم بالرغم من أن كلينتون عرض على السلطة الفلسطينية ٣٠ بليون دولار، ولو عاش المسيري إلى اليوم لوضع في سيرته أن ترامب عرض عليهم صفقة القرن المجزية ورفضوها، ويخلص المسيري إلى أن العقل المادي عقل عنصري إمبريالي؛ لأنه يسقط مفهوم الإنسانية المشتركة، ولا يجيد إلا اختزال الواقع بهدف توظيفه، ولا يعقلن الغايات بل

يعقلن الوسائل، فالمهم هو الجسر وليس هناك أهمية إلى إن كان سيؤدي إلى الجنة أم إلى الجحيم، وهذا يعني أن رؤية عنصرية لا عقلانية يمكن أن توظف خير الوسائل العلمية والتكنولوجية في خدمة اللاعقل، كما فعل النموذجان النازي والصهيوني، فهما مجتمعان يستخدمان العلم والتكنولوجيا بكفاءة غير عادية في رؤية داروينية غير عقلانية.(المسيري، ٢٠١٨أ، ص ٢١٢-٢١٤)

يوضح ريتشارد وايكارت في دراسته المهمة من داروين إلى هتلر أن هتلر اعتمد في عقليته الإبادية على أفكار كانت متداولة في الأوساط الثقافية، ولم تكن الصورة العرقية للعالم نتاج ضللاته وحسب بل كانت نتيجة ما توصل له العلم المعتبر في ألمانيا وأجزاء أخرى في العالم بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية؛ وأنها لم تكن سائدة في المجتمع الألماني إنما كانت التيار السائد في الأوساط العلمية والنخب الطبية(ريتشارد وايكارت، ٢٠٠٤/٢٠١٩، ص٣٠٣)

إن إمبريالية المؤسسة تفرض الترشيد على الإنسان وتجعله يكتب التقارير ويراكم المعلومات، ومن أهم جوانب الترشيد عدم وجود ضمانات للعاملين كي يستمروا في وظائفهم، إذ يمكن أن يصل أي منهم خطاب في أي لحظه يخبره بالاستغناء عن خدماته مما يجعل العاملين يعيشون في قلق دائم، الأمر الذي يزيد من إنتاجيتهم، فالإنسان السعيد المتزن مع نفسه تقل إنتاجيته بعض الشيء إذ تصبح أهدافه في الحياة إنسانية، وبلغت إمبريالية المؤسسة شأوا أن جعلت التلفون في الولايات المتحدة من أهم آليات الترشيد؛ إذ إن المؤسسة يمكنها أن تصل إلى كل العاملين في أي مكان وزمان مما يعني مزيدا من تآكل رقعة الحياة الخاصة، ومزيدا من توظيفها وحوسلتها.

وتصل الإمبريالية والعولمة الشاملة ذروتها في الترشيد الجواني بتنميط المجتمع عن طريق الاستهلاك، فصور الإنسان الاستهلاكي التي تروج لها الإعلانات التلفزيونية، وأفلام السينما تحدد للفرد كل شيء، ولا تتركه يحلم أحلاما خاصة، والهدف من الهجوم الإعلامي هو إشاعة النموذج الاستهلاكي لتطويع الجماهير وتدجينهم وتنميطهم بحيث يجد الإنسان العادي نفسه مستنبطا لفكرة أن السعادة لن تتحقق إلا عن طريق الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك؛ فيتوحد تماما بالسلعة، ويصبح إنسانا متسلعا ذا بعد واحد غارقا تماما في السلعة والمادة، وفي حالة غيبوبة إنسانية. (المسيري، ٢٠١٨أ، ص ٢٥٧)

يمكن ملاحظة تأثر المسيري بمدرسة فرانكفورت ورؤية ماركوزة للإنسان ذي البعد الواحد (وهو أهم أعماله) ووجه فيه نقدا مشتركا للمجتمعات الرأسمالية والشيوعية التي خلقت احتياجات وهمية للإنسان من خلال الإعلام والإعلانات لتوجه جميع الأفراد للفكر الاستهلاكي(مسمية، ٢٠٢٠، ص٥١)

والموضة التي أصبحت واحدة من أهم الصناعات وأضخمها أكبر دليل على ذلك فهي تتيح للمرأة تغيير ملابسها ليس كما تريد وكما يروق لها بل بناء على دور الأزياء التي تضبط سلوكها فتضع لها الخطوط الأساسية التي تتحرك خلالها، بل إن الولايات المتحدة نجحت في ضبط سلوك الملايين عن طريق حلم الاستهلاك، ووجهتهم نحو هدف واحد متمثل بالإنتاج والاستهلاك، بل إن الترشيد خرج خارج نطاق المجتمعات الغربية ليصل إلى ضبط المجتمعات في العالم الثالث ذات

الإثنيات والأديان المختلفة عن طريق المعونات الأجنبية، فهذه المعونات هي محاولة لترشيد المجتمع وتنميطه حتى يمكن ضمه إلى السوق العالمي، ويرى هربرت ماركوزه أن تصاعد معدلات الترشيد في المجتمع أدى إلى اختفاء الفرد والقيم الثقافية والروحية والعقل النقدي القادر على التجاوز حتى أصبح الإنسان كائنا ذا بعد واحد يرتبط وجوده بالاستهلاك والسلع؛ أي الإنسان المتشيّئ أو الإنسان الذي يعيش في قفص حديدي أو معسكرات الاعتقال المنضبط، ويشير المسيري إلى فاكيلاف هافل رئيس جمهورية التشيك الذي سئل عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، فيجيب " هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشري، فلم يعد الناس يحترمون ما يدعى بالقيم الميتافيزيقية العليا والتي تمثل شيئا أعلى مرتبة منهم شيئا مفعما بالأسرار"، أما هوبز فيرى المسيري أنه أول من وضع يده على الأطروحات المظلمة في العقلانية المادية، فحالة الطبيعة بعد انسحاب الإله من الكون هي حالة حرب الجميع ضد الجميع، فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وسيتم التعاقد الاجتماعي بين البشر لا بسبب فطرة خيرة فيهم، وإنما بسبب حب البقاء، فينصبون الدولة التنين حكما عليهم حتى يمكنهم أن يحققوا قدرا ولو قليلا من الطمأنينة، بناء على ذلك نرى أن أهم المفكرين الغربيين هجموا على الذات المستقلة في استنارتهم المظلمة، فنيتشة يرى أن الذات هي إحدى الحيل التي يحاول الضعفاء أن يخنقوا براءة القوة وتلقائيتها، والذات هي التي تفرض المثل الوهمية للوجود الثابت على عالم الصيرورة، ولا يختلف ماركس عن ذلك فهو يرى أن الذات الإنسانية المستقلة وهم، فوراء الواجهة المستقلة يوجد الصراع الطبقي ووسائل الإنتاج، أما فوكو ودريدا فلا توجد ذات ولا موضوع، فالذات إن هي إلا حفرية من حفريات الماضي، ووهم من الأوهام واختراع من اختراع الهيومانية الغربية، والموضوع لا يمكن الوصول إليه، وإنما هو نتاج الألعاب اللغوية والقوة.(المسيري، ٢٠١٨أ، ص٢١٦-٢٢٠)

نيتشة يرى أن أصحاب الحقيقة الديونيزية التي يؤمن بها الإنسان الأعلى لا يؤمنون بالجوهر والثابت والعلية والشكل والمضمون والغائية التي هي أفكار غير بريئة من المصلحة والتحيز وهي أفكار ليست مادية تماما إنما هي مجرد أوهام وأساطير وعقائد واستراتيجيات ابتدعها البعض ليهرب من حالة السيولة والصيرورة الدائمة إنما يؤمنون بالقوة الناجحة المنتصرة والنزوع البيولوجي للبقاء والقوة والصيرورة الدائمة التي تهرب من محاولة التفسير والتقبل بحقائق نهائية وحيدة مأساوية (المسيري،٢٠٢١، ص ١٠٩-١١٠)

يرى ميشيل فوكو في كتابه(التهذيب والطاعة) أن الطاغية الغبي قد يضطهد العبيد ويقهرهم مستخدما في ذلك السلاسل الحديدية، ولكن السياسي الحقيقي الماهر يستطيع أن يقيدهم بسلاسل أقوى من سلاسل الحديد عن طريق أفكارهم هم أنفسهم، وهو قيد يستمد قوته من أننا لا نعرف المادة التي صنع منها، وما هذا القيد من السجن العقلي أو الفكري سوى الإنسان نفسه(أبو زيد، ٢٠٠١، ص ٩٥-٩٦)

يؤكد المسيري أن الإمبريالية والنازية والصهيونية ظواهر لصيقة ببنية النموذج الحضاري الغربي، وأن الحداثة الغربية لصيقة بالإمبريالية من خلال نهب ثروات العالم الثالث، ومساعدة المستبدين بالقوة العسكرية أو ما يسمى بعبء الرجل الأبيض، واعتمد على قول المفكر الفرنسي

روجيه جارودي الذي قال إن شرط نمو الغرب كان بالضرورة نهب ثروات العالم الثالث، ونقلها إلى أوروبا وإلى أمريكا الشمالية، وأن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفا، فإبادة الهنود الحمر، ونخاسة العبيد لاستغلال أراضي الهنود والسيطرة العسكرية والسياسية على أفريقيا وعلى أسيا هو ما أدى إلى نمو أوروبا وتحديثها، وأدى هذا النمو إلى ظهور نمط إمبريالي جديد متمثل بالشركات متعددة الجنسيات التي تنظم نهب العالم على الصعيد العالمي باستخدام قوة الولايات المتحدة العسكرية أو المؤسسات الدولية، فالإمبريالية كما عبر جارودي خلقت قبرا يكفي لدفن العالم.(المسيري، ٢٠١٨أ، ص٢٢٧-٢٢٨)

القوة العسكرية أو إذا جاز أن نقول القوة الداروينية هي ما يؤمن به الغرب وهذا هو سبب تأيدهم للصهيونية وإسرائيل، وعدم اكتراثهم بالحق الفلسطيني ودعوتهم الفلسطينيين إلى البرجماتية والعملية، وما حق العودة والديباجات اليهودية إلا مسائل لا معنى لها، فالحق ليس فوق القوة بل إن داروين ونيتشه فوق الجميع، والعقل الغربي معجب بالصهاينة وقدرتهم على البطش، وحل الأمور بطريقة جراحية، فالغرب الذي لا يعترف بالمرجعيات الإلهية والأساطير ويؤمن بالعقلانية يؤيد مجموعة من الناس يغصون بالأساطير العرقية والبدائية الوثنية، ويطلب من العرب أن يعترفوا بإسرائيل لا بسبب الإبادة النازية ولا بسبب ما تعرض له اليهود من مظالم، وإنما بسبب موازين القوى التي لا تعرف الله أو الإنسان ولا تعترف بهما، فالمعيار الوحيد هو القوة لا العقل، ويذكر المسيري أن كره العرب ازداد بشراسة بعد ١٩٧٢ ففي حضارة داروين ونيتشة لا يوجد مجال للمهزومين (المسيري،٢٠١٨أ ، ص٢٣٠-٢٣١)

هاجم المسيري الديموقراطية الغربية واعتبرها جزءا من ديباجات الإمبريالية والعولمة الشاملة، فالنظام الغربي لا يسمح إلا لذوي المال بالترشح، وأن يقوم بحملة انتخابية، أما من لا يملك المال فالميديا لا تهتم به ومصيره التهميش، وفي عصر الميديا فإن الرأسماليين وجماعات الضغط هم من يؤثرون على نتائج الانتخابات، كما لاحظ المسيري أن هتلر وصل إلى الحكم بالقنوات الشرعية الديموقراطية، وحاز على إعجاب وحماس الشعب الألماني، كما وافقت الشعوب الغربية على إرسال جيوشها لإبادة البشر ونهب أراضيهم، بل إن هذه الشعوب عبرت عن رأيها بالغ الديموقراطية على عمليات البطش والذبح التي تقوم بها القوات الإسرائيلية، وهذا يشبه ما تقوم به عصابات المافيا حيث تقوم بإجراءات ديموقراطية، ولكن تجعل مرجعيتها النهائية سلب الآخرين، إذا فإن الديموقراطية مرتبطة بالرأسمالية في كل وحشيته وداروينيته، وأولويته الربح مع إهمال لكثير من الجوانب الاجتماعية والإنسانية (المسيري، ٢٠١٨أ ، ص٢٣٦-٢٣٨)

ليس هذا ببعيد عن اعتراف بنيامين فرانكلين في أن الرأسمالية هي النفعية المحضة وفضيلتها النفاق في قوله إن الله أوحى إليه بنفعية الفضائل، والله هو منفعة. ولا تحتوي هذه الأخلاق على أي تصور للسعادة ولا حتى اللذة، فالخير الأقصى لديها هو كسب المال ثم كسب مال أكثر، فالمال غاية في وجوده، موضوع متعال لا عقلي. الكسب هو غاية الإنسان وذلك موجود في التوراة .

إن روح الرأسمالية في تعبير ماكس فيبر في صراع مع التقليد الذي لا يوجه الناس نحو كسب أكثر بل نحو إشباع حاجاتهم، وكسب ما يتطلب ذلك من مال بصرف النظر عن الإنتاج والربح، وروح الرأسمالية هي البحث العقلي والمنهجي للربح، وعلى هذه الروح أن تخلق رأس المال نفسه، وحتى الدين ينبغي أن يكون خادما للرأسمالية كما هو عند الاتجاه اليميني الأمريكي، وهو إحساس برأس المال عند الأغنياء، والعمل هو رسالة عند الفقراء ، وكأن الرأسمالية روحية تقوم على رسالات السماء ودعوات الأنبياء، وقد خطّت مهنة الإنسان إلى الأبد، ولا يمكنه تغييرها، فأعطى الدين تفسيرا رأسماليا، وأعطى الرأسمالية تفسيرا دينيا.(حنفي، ١٩٩٠ ، ص ٢٣٦-٢٣٧)

وفي معرض ذكره للحلولية يذكر المسيري أن الحلولية السائلة حلت مكان الحلولية الصلبة التي كانت سائدة حتى منتصف القرن العشرين، فبعد ماركس وفرويد جاءت حضارة المابعديات فهي حضارة ما بعد الصناعة وما بعد الرأسمالية، وما بعد الحداثة، وما بعد الإنسانية، وفيها تتحرر الطاقة الجنسية من أي أعباء اجتماعية أو أخلاقية أو إنسانية، وتصبح مسألة طبيعية محايدة، وانتهى الأمر بتجاوز الإنسان للمركز وللوعي الكوني وللجوهر الإنساني(المسيري، ٢٠١٨أ، ص٢٤٦-٢٤٨)

يذكر المفكر البولندي زيجمونت باومان في كتابه المهم"الثقافة السائلة" نقلا عن بيير بورديو أن الثقافة النخبوية كانت مصدرا من مصادر الطبقات فمن خلال الثقافة تتعين الطبقة وتتميز وتحمى، فلا يجوز الخلط، وظهرت باعتبارها وسيلة مفيدة تعي أن الغرض منها هو الكشف عن الاختلافات الطبقية وتأمينها باعتبارها تكنولوجيا مبتكرة لاستحداث الفروق الطبقية والتراتبات الاجتماعية وحمايتها، وكان الغرض منها التطوير والتغيير عن طريق سيادة التطور الاجتماعي نحو وضع إنساني عالمي مرتبط بشعاع التنوير الذي استخدم الثقافة باعتبارها نشاطا يشبه فلاحة الأرض، لكن انتقلت الثقافة إلى دور المسكن والمهدئ، وإلى مستودع لمنتجات المواد الحافظة، ويقول باومان إن الثقافة انتقلت من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة، ويشير المصطلح إلى "ما بعد الحداثة" أو "الحداثة المتأخرة" أو "الحداثة الثانية" أو " الحداثة العليا" وأن الثقافة لم تنتقل من الصلب إلى الأشد صلابة بل إلى الأشكال الذائبة الأكثر ذوبانا، وجاء هذا نتيجة لخدمة السوق الاستهلاكية المتجهة نحو حركة البيع.

ويضيف باومان بأن المجتمع الحالي هو مجتمع المستهلكين، وتظهر الثقافة نفسها مثل كل شيء يعيشه المستهلكون باعتبارها مستودعا للبضائع الاستهلاكية تتنافس لجذب الزبائن المحتملين، وعلامة الانتساب لنخبة ثقافية يتمثل بإبداء أقصى قدر من التسامح، وأقل قدرة على الاختيار، ومبدأ النخبوية الثقافية هو الشراهة التي تأكل كل شيء، وأستطيع أن أضيف جملة قد تعبر عن ذلك في أن الثقافة أصبحت ما يطلبه المستمعون.

ويشير باومان إلى نقطة مهمة في هذا الموضوع في أن القوى الدافعة للتحول التدريجي إلى الحالة السائلة هي القوى نفسها التي تحبذ تحرير السوق من القيود غير الاقتصادية لا سيما القيود الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، فالاقتصاد الحديث السائل المستهدف للمستهلك يعتمد على

فائض عروضه، وشيخوختها السريعة، وذبول في غير أوانه لقواها المغوية ما دامت البضائع ستتمتع بجاذبية متواصلة لإشعال رغبة المستهلكين.(باومان،٢٠١١/ ٢٠١٩، ص١١-٢٣)

وتدليلا على توقعات المسيري عرض لعدد من الشخصيات التي قابلها وتوقع مآلاتها، وإلام ستنتهي حالها، وكانت توقعاته في محلها، فصار الجنس الذي اتخذته الشخصيات تعبيرا عن تمردها وبروميثيوستها وخروجها على أنماط المجتمع أحد أدوات الحلول والسيطرة، وتحول الجنس من عنصر ثوري إلى عنصر معاد للثورة توظفه الشركات لصالحها، فكان الهدف من الإباحية ليس إرضاء الشهوات والتمرد وملء الفراغ إنما اختزال الإنسان إلى جسد ثم تشريح أو تفكيك هذا الإنسان وتحويله إلى مادة استعمالية، فأصبحت البغي في بعض الأوساط تسمى عاملة جنس، ويقتبس المسيري عبارة المفكر الفرنسي ليوتار" الجسد أصبح أصل الفلسفة وأصل كل النشاطات الأساسية، أما الإبستومولوجيا فقد أصبحت تشبه النشاط الجسدي" فالجنس أصبح نمطا حلوليا أرضيا بديلا للميتافيزيقيا، وأصبح التمثال العاري تأكيدا للمادية، بل تساءل المسيري عن الذي يهيمن على المجتمعات الغربية الحديثة هل هو نموذج وثني متدن يدور حول عبادة الأعضاء التناسلية؟ هل هذه الوثنية هي أعلى أو أدنى مراحل المادية، إذ يرد الإنسان إلى جسده ثم يرد جسده بأسره إلى أعضائه التناسلية، ويؤكد المسيري أن قضية الجنس كانت من القضايا المهمة التي اكتشف من خلالها بساطة الرؤية المادية الاختزالية، وأنها لا تؤدي إلى تحرير الإنسان وإنما إلى تفكيكه.(المسيري، ٢٠١٨أ، ص ٢٥٠-٢٥٦)

يركز المسيري على الحلولية والإمبريالية النفسية المرتبطة بالسعار الجنسي والاستهلاكي، وأن الإمبريالية التقليدية أدت إلى استنزاف المعمورة، وإقامة الحروب بين الدول النامية لتحقيق المزيد من الأرباح، ويرى أن الإمبريالية النفسية أكثر عمقا وشمولا من ذلك فهي تنطلق من الإيمان بأن الهدف من الإنتاج هو الاستهلاك، وأن الهدف من تزايد الإنتاج هو تزايد الاستهلاك، وأن حياة الإنسان تكتسب مزيدا من المعنى إن صعّد من استهلاكه، وأن الإنسان حيوان اقتصادي لا يبحث إلا عن منفعته الاقتصادية ولذته الجسدية، وأن سلوكه لا بد أن يصبح نمطيا حتى يمكن أن يستهلك السلع التي تنتجها خطوط التجميع، وتحول الشعار التقليدي "الحاجة أم الاختراع" إلى الاختراع هو أبو الحاجة، فلا بد أن تظهر سلعة جديدة يوميا، وتعمقت الإمبريالية النفسية رأسيا في داخل النفوس بدلا من التوسع الأفقي الذي يتطلب القوة العسكرية، وساعد على ذلك الإعلام المنفتح، وصناعة الصورة، وقطاع الأزياء الذي يغير الأذواق كل عام مرتين، وقطاع الإعلانات التجارية، وأصبح الإنسان العادي يجد نفسه مستبطنا لفكرة أن السعادة لن تتحقق إلا عن طريق الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، فيتوحد بالسلعة ويصبح إنسانا متسلعا ويدلل على قول جلال أمين فإن ضحايا الاستغلال في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ليسوا العمال والفلاحين، وإنما هم المستهلكون من أي طبقة، ويوضح المسيري بناء على هذا التنميط الاستهلاكي الدعايات التي كانت موجهة للنساء، ويستذكر حالة تاريخية لدفع النساء إلى التدخين كيف نشروا في الصحف أن السجائر مشاعل للحرية، وكيف استجابت النساء ودخن جهارا في موكب تسير فيه النساء في عيد الفصح، ثم ذكر ما يفعله المحللون النفسيون الذين يعملون في الشركات من الهجوم الإعلامي

لإشاعة النموذج الاستهلاكي لتطويع الجماهير وتدجينهم وتنميطهم(المسيري، ٢٠١٨أ، ص٢٥٧-٢٥٩)

يلخص باومان فكرة الاستهلاك فيقول: ليس لثقافة الحداثة السائلة شعب تنيره وترتقي به، ولكن لها زبائن تغريهم، فالإغراء على عكس التنوير والارتقاء بالنفس ليس مهمة واحدة يقوم بها المرء مرة وللأبد بل هو نشاط مفتوح لا نهاية له، فليست وظيفة الثقافة إشباع الحاجات القائمة بل خلق حاجات جديدة، فاهتمامها الرئيس منع الإحساس بالرضا لدى الزبائن ومنع الإشباع الكامل التام النهائي الذي لا يترك مجالا لمزيد من الحاجات والنزوات الجديدة التي لم تتحقق بعد(باومان،2011/ ٢٠١٩ ، ص٢٣)

بل إن المفكر سلافوي جيجك يذكر ملاحظة مهمة تتوافق مع ما قاله باومان والمسيري في أن التعددية الثقافية لا تتعارض مع الرأسمالية العالمية إطلاقا؛ وذلك لأن التعددية الثقافية تعني أن لجميعنا الحق في الاحتفاظ بهويته الثقافية طالما كلنا نتشارك في السوق العالمية، (جيجك، ٢٠١٩، ص ١٩٣) وكأن السوق هي الرابط العالمي، وما عداها مجرد هوامش .

لكن بعيدا عن السوق الفردية لمن أراد خلق قومية اجتماعية فإن الأمر على النقيض ويمكن أن يشكل خطرا ومن هنا نستطيع فهم هجوم الصهاينة المسيحيين على الليبرالية والانفتاح الثقافي المتعدد والتسامح؛ لأنه يبيح لليهودي الإقامة في الدياسبورا بدلا من الإقامة في إسرائيل، ويعني ذلك نهاية حلمهم في إقامة شعب يهودي واحد، فالليبرالية تمنح اليهودي فرصة الحياة الفردية لكنها تنكر عليه فرصة الحياة الجمعية القومية؛ وهذا عكس ما تريده الصهيونية فهي تريد ليبرالية إثنية قومية متجمعة في فلسطين ولا تريد ليبرالية فردية فردوسية ليهود الدياسبورا، فهي تقبل بالليبرالية القومية وبديموقراطية الدولة وكل ما يتعلق بالحياة الغربية إذا كانت مرهونة بوحدة الشعب الإسرائيلي في فلسطين فقط.

أما ديورانت (٢٠١٦/١٩٤٦، ص١٠٨) في حديثه عن الاقتصاد والقيم المجتمعية الأمريكية فيتساءل متخوفا أنه لم يسبق لحضارة أن وجدت مثل القاعدة الاقتصادية المعدة كما وجدتها أمريكا من حيث المناخ والأراضي الخصبة والمعادن والوقود وسكك الحديد والمصانع والمخترعون وأصحاب المال، لكن الثروة وحدها لا تجعل الأمة عظيمة، فيمكن تحطيم الأسرة بدلا من بناء البيوت، ويمكن أن تفسد الحكومة بدلا من حماية الفنون، ويمكن أن تسود القوة بدلا من الحكمة، والفظاظة بدلا من الأدب، والترف بدلا من الذوق، ممكن أن تقدم روما الفاسدة بدلا من اليونان المبدعة، ويتساءل فأي هذين ستكون أمريكا؟

وأرى أن البشرية إجمالا مرت بمراحل ثلاث: المرحلة الأبوية وهي مرحلة أيقونية بحيث كانت حياة الإنسان مجرد تمثيل للمقولات الأبوية السابقة وتقديسها على اعتبار أنها المثل العليا.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الأبناء وتم فيها تحطيم الأيقون الأبوي والمرجعي، وتحول الإنسان إلى نفسه وإلى حياته ووجوده والتعرف إليها وإلى الأنظمة التي تسيرها.

ثم جاءت المرحلة الثالثة وهي مرحلة الأبناء وفيها تحطيم كل ما سبق وعد الحياة والثوابت مجرد فائض لغوي والواقع مجر لعبة ومجاز وسيولة لانهائية، وأن الحياة الغربية قد بلغت هذه المرحلة.

ذكر جينو (٢٠١٩/١٩٢٧، ص١٩٢-١٩٥) المسمى عبد الواحد يحيى بعد إسلامه في سنة ١٩٢٧ في كتابه أزمة العالم الحديث أي قبل عصر ما بعد الحداثة أن صراعا حدث ما بين الحضارات الربانية المشرقية التي تؤمن بالميتافيزيقيا، وتعتقد بوجود منظومة أعلى من جميع المنظومات الإنسانية الحديثة، والتي تعتقد بوجود إنسان خاص وعام، فالخاصة أهل المعرفة العليا والعرفان والحكمة الإلهية الخاصة الذين يصرفون أمور الناس وفق مراد السماء، فكانوا في الملمات والنازلات ملجأ وأمنا، والعامة الذين يهتدون بهديهم ويأتمرون بأمرهم- وبين الحضارة الغربية الحديثة التي قصرت نظرها على الإنسان وأنكرت كل ما وراء ذلك، فجاءت بالعلوم الدنيوية على حساب العلوم الدينية والنسبية على حساب الكلية والأزلية، وسادها قانون العدد فأحالها حضارة كمية وأغرتها سطوة القوة الخشنة، فانطلقت تفرض مفاهيمها على أهل الأرض، وأبت على الشعوب إلا أن تحيا حياتها في عصر من الصيرورة المادية عن طريق الاحتلال العنيف والتجارة واستغلال موارد الشعوب الأخرى، وأوغلوا بعد ذلك في التبشير بآرائهم وأفكارهم وبثوا في نفوس الآخرين روحهم المادي المناهض للعلم الإلهي، إذ لم تقتصر الصورة على غزو الأجسام بل قصدت الصورة إلى الفكر؛ فسممته وقتلت الروحانيات، ولم يتأت لها ذلك إلا بالقوة المادية؛ لأنه لا تمييز لحضارته إلا في هذا الجانب الذي هو أحط الجوانب قاطبة.

المسيري ينحاز في معادلة الحياة للروحاني على حساب المادي دون الغرق في الروحانيات، فالإنسان مادة وميتافيزيقيا متجاوزة للمادة يمكن أن يطلق عليها المقدس، ويستعرض المسيري الفلسفات الغربية، ويختزل أكثرها في النموذج المادي، وأن الفراديس التي تسعى إليها، وتنهي التاريخ والتدافع البشري فيها هي فراديس مادية، وخاصة التقدم العلمي الذي سيدفع الإنسان إلى ورطة كونية، فبحثه عن العنصر الكوني في الإنسان والطبيعة أو العنصر الثابت الذي يوجد في الطبيعة ويتجاوزها خارج إطار الزمان والمكان هو الذي أرشده للقضية الفلسطينية وعداء الصهيونية؛ لأنه رأى أن الصهيونية معادية للتاريخ والإنسان، ولذا تبنى القضية الفلسطينية بل تحولت القضية إلى نقطة الثبات والتجاوز بالنسبة له، فهي قضية الحق فيها واضح غير مبهم، ولا يمكن للإنسان أن يرفضها إلا من منظور مادي داروينى شرس، ثم اتسعت القضية الفلسطينية لتصبح رمزا للتاريخ الإنساني بحسبان أن التاريخ كيان مركب لا يرد إلى الطبيعة المادية، فعودته الروحية هي التي جلبته للقضية الفلسطينية.(المسيري، ٢٠١٨أ، ص٢٨٤-٢٨٨)

يفرق المسيري بين الواقعيين والوقائعيين، ويضرب مثلا على ذلك بالمجاهدين في فلسطين ولبنان والعراق، ويرى أنهم واقعيون، وأنهم استطاعوا أن يصلوا إلى جوهر الواقع، وتجاوزوا الظاهر ووصلوا إلى الباطن وأوقعوا الهزيمة في العدو؛ لأنهم تمسكوا بالحق لا بالحقائق، فالحق يسبق عمليات الفهم والإدراك والتحليل والتجريد والفك والتركيب، أما الوقائعيون فهم دعاة التطبيع والعولمة فهم مرتبطون بالحاضر وحسب؛ أي في نهاية الأمر بالمعطيات المادية أي

التعامل مع الحقائق الموجودة، ويهاجم المسيري البراجماتية التي لا ترى غير المادية، ويضرب مثلا على ذلك بلافتة برجماتية على محل كوي ملابس تستحضر لحظة انفجار نووي، فتقول الفاتورة: قف هادئا، وادفع الفاتورة، واهرب بعد ذلك بأقصى سرعة، فالمادة هي الهم، والنزعة الحلولية في المادة هي رأس كل قول، ويحلل المسيري البرجماتية والأسلوب التفاوضي البرجماتي الذي يرجئ القضايا الكبرى والتركيز على القضايا التي يمكن حلها بطريقة ما أثناء المفاوضات، فقد يظهر شيء ما يساعد على حل القضايا النهائية ، ويرى أن هذه الطريقة تعقد الأمور عن طريق تبسيطها، وينتهي الأمر بأن صاحب المدفع الأكبر هو الذي يفرض رأيه، وذلك بسبب غياب أي مرجعية كلية وتصور المسيري أن هذا ما حدث في كامب ديفد وفي أوسلو.(المسيري،٢٠١٨أ ، ص٣١٧-٣٢٣)

في الختام فليس كل المفكرين العرب وافقوا المسيري في أطروحاته، وخاصة في تصنيفه لكبار المفكرين مثل نيتشة ودريدا، ووضعهم ضمن مسار المادية الغربية، فالناقد سعد البازعي نعته بالتعميم والاختزال، وأنه وقع في التعميم المخل، ولم يفسح المجال داخل نماذجه التنظيرية والتفسيرية الكبرى للاختلافات والخصوصيات الفردية للتدخل، أما الناقد أحمد الجرطي فرأى أن المسيري وقع في التخبط والاضطراب، وتناقض النتائج بسبب تحليلاته الشمولية وتقسيماته الكلية واستبعاده للفردي والهامشي، وتساءل إن كان بالإمكان توصيف قراءات المسيري للآخر بأنها من صنف الاستشراق المعكوس الذي يضع مقابل التمركز الهوياتي الغربي تمركزا شموليا جديدا حول الذات يؤمن بنقائها وصفائها الناجز والمغلق ويوسع من هوة التناحر، ويبيد كل أمل بالتعدد والاختلاف(الجرطي، ٢٠٢٢، ص٣١٤-٣١٨)

المصادر والمراجع:

أبو زيد، أحمد. (٢٠٠١). *الطريق إلى المعرفة-كتاب العربي السادس والأربعون*. مجلة العربي.

باومان، زيجمونت. (٢٠١٩). *الثقافة السائلة* (حجاج أبو حجير، مترجم). الشبكة العربية للأبحاث والنشر.(العمل الأصلي نشر في ٢٠١١).

بدوي، عبد الرحمن. (٢٠١٩). *موسوعة الفلسفة*. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

بريمي، عبد الله. (٢٠١٥). شارل ساندرس بورس، البراغماتي والظاهراتي والسميائي ١٨٣٩-١٩١٤، من معجم الفلاسفة الأمريكان من البراجماتيين إلى ما بعد الحداثيين. *دار الأمان*.

البشير، رباح. (٢٠١٤). *عبد الوهاب المسيري وأسئلة الوجود المعرفي. النموذج المعرفي-العقل البشري-العلمانية، الفلسفة العربية المعاصرة تحولات الخطاب من الجمود التاريخي إلى مأزق الثقافة والإيديولوجيا*. دار الأمان.

بن مسمية، ثريا. (٢٠٢٠). *مدرسة فرانكفورت، دراسة في نشأتها وتياراتها النقدية واضمحلالها- العتبة العباسية المقدسة المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية*. النجف لنشر.

بوشلاقة، رفيق عبد السلام. (٢٠٠٤). *محورا العلمانية والحلولية في فكر المسيري، مقال ضمن كتاب جماعي، في عالم عبد الوهاب المسيري، حوار نقدي حضاري*. دار الشروق.

الجرطي، أحمد. (٢٠٢٢). *التفكيك في الفكر العربي وإشكالية التحيز عبد الوهاب المسيري نموذجا، من كتاب هجرة التفكيك إلى النقد العربي بين الكونية والتحيز*. دار فضاءات.

جيجك، سلافوي. (٢٠١٩). ليلا عند أعتاب هيجل(هشام عقيل، مترجم). *مجلة الثقافة العالمية*. عدد ٢٠٠.

جينو، رينيه. (٢٠١٩). *أزمة العالم الحديث* (أسامة شفيع السيد، مترجم). مدارات للأبحاث والنشر.(العمل الأصلي نشر في ١٩٢٧).

حنفي، حسن. (١٩٩٠). *في الفكر المعاصر*(ط٤). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

الخليل، رعد عبدالجليل، مجيد، حسام الدين علي.(٢٠٢٢). في النظرية السياسية النسوية البنى الفكرية والاتجاهات المعاصرة- عالم المعرفة. *المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب*.٤٩٣ (٣٦٧).

ديورانت، ول. (٢٠١٦). *مباهج الفلسفة، الكتاب الثاني*(أحمد فؤاد الأهواني، مترجم). المركز القومي للترجمة.(العمل الأصلي نشر في ١٩٤٦).

الزين، محمد شوقي. (٢٠٠٨). *إزاحات فكرية مقاربات في الحداثة والمثقف*. الدار العربية للعلوم ناشرون.

عبد الوهاب المسيري: نهاية التاريخ، دراسة في بنية الفكر الصهيوني- دار دون-القاهرة،ط١، ٢٠١٨.

كاسيرر، إرنست. (٢٠١٨). *فلسفة التنوير* (إبراهيم أبو هشهش، مترجم). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

لوجرين وأخرون. (٢٠٠٩) . *المقاربات النقدية*(زوهان الحمامي، مترجم). دار العائدي للنشر والدراسات والترجمة.

م.رابكن، يعقوب. (٢٠٢١). *معنى إسرائيل* (حسن خضر، مترجم). مدار المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

المسيري، عبد الوهاب. (٢٠٠٢). *العلمانية الجزئية العلمانية الشاملة*. دار الشروق.

المسيري، عبد الوهاب. (٢٠١٨أ). *رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر*(ط٩).دار الشروق.

المسيري، عبد الوهاب. (٢٠١٨ب). *نهاية التاريخ، دراسة في بنية الفكر الصهيوني*. دار دون.

المسيري، عبد الوهاب. (٢٠١٩). *الفردوس الأرضي*(ط٢). تنوير للنشر والإعلام.

المسيري، عبد الوهاب. (٢٠٢١). *رحابة الإنسانية والإيمان دراسة في أعمال مفكرين علمانيين وإسلاميين من الشرق والغرب*(ط٢). دار الشروق.

مفتن، صباح الحاج. (٢٠١٥). *فرنسيس فوكوياما، من معجم الفلاسفة الأمريكان، من البرجماتيين إلى ما بعد الحداثيين*. دار الأمان.

وايكارت، ريتشارد. (٢٠١٩). *من داروين إلى هتلر*، (جنات جمال- يسرا جلال، مترجم). مركز براهيم للأبحاث والدراسات. (العمل الأصلي نشر في ٢٠٠٤).

المصادر العربية مترجمة:

Abu Zaid, Ahmed. (2001). The road to knowledge - the forty-sixth Arab book. Al-Arabi Magazine.

Baumann, Zygmunt. (2019). Liquid culture (Hajjaj Abu Hujeir, translator). Arab Network for Research and Publishing. (Original work published in 2011).

In turn, Abdul Rahman. (2019). Encyclopedia of Philosophy. Arab Foundation for Studies and Publishing.

Buraimi, Abdullah. (2015). Charles Sanders Burse, The Pragmatist, the Phenomenologist, and the Semiotic 1839-1914, From a Dictionary of American Philosophers from the Pragmatists to the Postmodernists. Dar Al-Aman.

Bashir, Rabah. (2014). Abdel Wahhab Al-Messiri and questions of cognitive existence. The epistemological paradigm - the human mind - secularism, contemporary Arab philosophy, discourse shifts from historical stagnation to the dilemma of culture and ideology. Dar Al-Aman.

Bin Mosmia, Soraya. (2020). The Frankfurt School, a study of its inception, critical currents, and decline - the al-Abbas's (p) holy shrine, the Islamic Center for Strategic Studies. Najaf to publish.

Bouchlaga, Rafik Abdeslam. (2004). The axes of secularism and solutionism in El-Messiri's thought, an article in a collective book, in the world of Abd El-Wahhab El-Messery, a civilized critical dialogue. Sunrise House.

Al-Jarti, Ahmed. (2022). Deconstruction in Arab Thought and the Problem of Prejudice Abdel-Wahhab El-Messiri is a model, from the book The Migration of Deconstruction to Arab Criticism between Universalism and Prejudice. House of spaces.

Žižek, Slavoj. (2019). Night at Hegel's doorstep (Hisham Aqil, translator). Journal of World Culture. 200 count.

Gino, Renee. (2019). The Crisis of the Modern World (Osama Shafea Al-Sayed, Translator). Orbits for Research and Publishing. (The original work was published in 1927).

Hanafi, Hassan. (1990). In Contemporary Thought (4th edition). University Foundation for Studies, Publishing and Distribution.

Al-Khalil, Raad Abdel-Jalil, Majeed, Hossam El-Din Ali. (2022). In feminist political theory, intellectual structures and contemporary trends - the world of knowledge. The National Council for Culture, Arts and (٣٦٧) Literature.493.

Durant, L. (2016). The Joys of Philosophy, Book Two (Ahmed Fouad Al-Ahwany, translator). National Center for Translation. (Original work published in 1946).

El-Zein, Mohamed Shawky. (2008). Intellectual displacements, approaches to modernity and the intellectual. Arab House of Science Publishers.

Abd al-Wahhab al-Masiri: The End of History, a Study in the Structure of Zionist Thought - Dar Don - Cairo, 1st edition, 2018.

Cassirer, Ernst. (2018). Enlightenment philosophy (Ibrahim Abu Hashhash, translator). Arab Center for Research and Policy Studies.

Loughren et al. (2009). Critical Approaches (Zohan Al-Hamami, Translator). Dar Al-Aidi for publishing, studies and translation.

M. Rabkin, Jacob. (2021). Meaning of Israel (Hassan Khadr, Translator). Orbit of the Palestinian Center for Israeli Studies.

Elmessiri, Abdel Wahhab. (2002). Partial secularism, comprehensive secularism. Sunrise House.

Elmessiri, Abdel Wahhab. (2018a). My Intellectual Journey in Seeds, Roots, and Fruit (9th Edition). Dar Al-Shorouk.

Elmessiri, Abdel Wahhab. (2018b). The end of history, a study in the structure of Zionist thought. Dar Don.

Elmessiri, Abdel Wahhab. (2019). Earthly Paradise (2nd edition). Tanweer Publishing and Media.

Elmessiri, Abdel Wahhab. (2021). The spaciousness of humanity and faith, a study in the works of secular and Islamic thinkers from the East and the West (2nd edition). Sunrise House.

Meften, Sabah Al-Hajj. (2015). Francis Fukuyama, in A Dictionary of American Philosophers, From Pragmatists to Postmodernists. Dar Al-Aman.

Weikart, Richard. (2019). From Darwin to Hitler, (Janat Jamal - Yusra Jalal, translator). Brahim Center for Research and Studies. (Originally published in 2004).